بسم الله الرحمن الرحيم

فتوح النبي ﷺ و غفران ذنبه

عند عبدالرزاق الكاشاني و السيد الإمام الخميني

فاطمة آل يوسف[1]

أستاذ نوروزي[2]

الخلاصة

الفتح في العرفان هو كل ما يُفتح على العبد من الله تعالى بعد ما كان مُغلقاً عليه من النِّعم الظاهرة و الباطنة كالأرزاق و العبادة و العلوم و المعارف و المكاشفات و غير ذلك.

لقد أشار القرآن الكريم أن للنبي ﷺ ثلاثة فتوح هي:

1. **الفتح القريب: ﴿نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَ فَتْحٌ قَرِيبٌ﴾**
2. **الفتح المبين: ﴿إِنَّا فَتَحْنا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً (1) لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ ما تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَ ما تَأَخَّرَ﴾**

[1] طالبة دكتوراه في العرفان في فكر الإمام الخميني قدس سره، في جامعة الأديان و المذاهب بقم المقدّسة.

[2] أستاذ مساعد في مؤسسة الإمام الخميني للتعليم و التحقيق، و قد أشرف على كتابة المقالة.

3. الفتح المطلق: ﴿إِذا جاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾.

كل فتح من الفتوح الثلاثة يلازمه غفران ذنبيَن أحدهما متقدّم و الآخر متأخّر، المقصود من الذنب هو المحدودية و التقيّد ، و إزالة هذه القيود هي الغفارية و السّتر.

بما أن النبي ﷺ هو الخليفة في الظهور و واسطة الفيض فإن ذنب النبي ﷺ المتقدّم في الفتح القريب هي تلك التنزلات المحمدية في مراتب المظاهر خصوصا النفوس البشرية من الذُريّة في قوس النزول، أما الذنب المتأخّر فهو الأخذ بأيدي الناس كي يتقرّبوا من الله سبحانه في قوس الصعود، و غفران ذنبه هو إزالة تلك المراتب بعودتها و ترقّيها إلى مقام القلب.

أما في ما يرتبط بالفتح المبين فقد ذكرنا أنّ النبي ﷺ هو الخليفة في الظهور، به ظهر الخلق و به يعودون، فإنّ خلاص المؤمنين من محدودية النفس و منازلها يتم به ﷺ و أن نفوسهم هي مظاهر نفسه ﷺ، و إن كانت حقيقته فوق القيود، لكنه في مظاهره لا يمكنه أن يؤدي حق الأزلية بكمالها لمحدودية المظاهر، و هذا هو ذنبه المتقدم أي تلك الحدود و المنازل النفسية، أما ذنبه المتأخر فهي القلب و مراتبه، و الغفّارية هي زوال هذين الذنبين.

أما في ما يرتبط بالفتح المطلق حيث يغرق السالك و يفنى و تستتر ذاته عنه في بحر قهارية التجلي الأحدي. هذه المرتبة من مراتب الذنب و الاستغفار ترتبط بعلاقة النبي ﷺ بالحق سبحانه و تعالى، فالنبي ﷺ مخلوق -و إن كانت حقيقته لا متعيّنة و فوق التعيّن- و

مهما عبد الله فإنه كما عبّر «ما عبدناك حق عبادتك» و كيف للمخلوق أن يعبد المطلق اللامتناهي و هو لا طريق له إلى معرفته حق المعرفة «و ما عرفناك حق معرفتك»، فذنب النبي ﷺ هو وجوده المحدود و مخلوقيته (وجودك ذنبٌ لا يقاس به ذنب) و استغفار النبي ﷺ يزيل حجاب هذه المحدودية عنه فلا يشاهدها مطلقا، ويؤكّد على ولايته الذاتية و هي ولاية لا متناهية و استغفار النبي ﷺ و عبوديته للحق سبحانه تجعله يعرج عروجاً لا متناهيا في مقام (أو أدنى) وهذا ما أشارت إليه الآية القرآنية ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ﴾ (الإسراء:**1**) أي عبد الهوية اللامتناهية و هو من مختصاته ﷺ، فذنبه المتقدّم هنا هو كونه صاحب الولاية الذاتية في قوس النزول ، و الذنب المتأخر هو كونه صاحب الفناء الذاتي اللامتناهي في قوس الصعود.

هذه آخر مراتب غفران الذنب و أكبرها و هو الذنب الذاتي (وجودك ذنبٌ لا يُقاس به ذنب) وقُصِد به التفات وتوجه السالك إلى وجهه الحقيّ وغفلته عن وجهه الخلقي. إذن مع الفتح المطلق تنكشف التجليات الذاتية الأحدية ويُغفر الذنب الذاتي المطلق.

الكلمات المفتاحية

فتوح النبي ﷺ، الفتح القريب، الفتح المبين، الفتح المطلق، ذنب النبي ﷺ، غفران ذنب النبي ﷺ.

مقدّمة

يتكون كل علم من العلوم من مدارس و اتجاهات و لكل مدرسة نَظْم خاص لمسائلها، غالباً مّا يتأثر نظْم المسائل بالتصورات و المفاهيم التي تتبنّاها تلك المدرسة، و مع وجود الاشتراك اللفظي في المصطلحات بين المدارس، يصبح من المهم التمييز بين مفاهيم تلك المصطلحات لفهم المسائل، من هنا يتبيّن لنا أهمية التعرُّف على المصطلحات.

تعتبر الأسفار، المعارج، و الفتوح من المصطلحات المهمة و المتقاربة و التي يتأثر بعضها ببعض في العرفان العملي، و قد اشتهر مصطلح "الأسفار" أكثر من المعارج و الفتوح و كُثُرت فيه الأبحاث، بالرّغم من أنه لو رجعنا إلى المصادر الأولى في العرفان سنجد أنّ مصطلح الفتوح قد ظهر منذ نشأة العرفان و التصوف، في حين أن مصطلح الأسفار الأربعة لم يظهر إلا في عبارات عفيف الدين التلمساني (610 – 690) الذي ادّعى أنّه لم يُذكر السفر الثاني في مؤلفات العرفاء قبل المحقق عبدالله الأنصاري -فضلا عن السفر الثالث و الرابع- ، بل نكاد لا نجد كتاباً خاصاً في دراسة الفتوح في العرفان، بالرغم من كثرة المسائل المرتبطة به، و خصوصيتها بالنسبة للمسلمين، خصوصاً المسألة مورد البحث و هي علاقة الفتوح بذنب النبي ﷺ المذكور في سورة الفتح المباركة، كما أنّ للفتوح أقسام و مقدِّمات و طُرُق، و لكل فتح أبواب و مفاتح و موانع و آفات.

يجدر بنا أن نشير إلى أنّ مسألة الفتوح تأتي على ألسنة العرفاء بعد طيّ المقامات و الأحوال، يقول السُلّمي: "أمّا المقام فإنّه مقام العابد بين يدي الله تعالى في العبادات. و أوّلها

الانتباه و هو خروج العبد عن حدّ الغفلة. ثمّ التّوبة ثمّ الإنابة ثمّ الورع. ثمّ الإرادة ثمّ الزّهد. ثمّ الفقر ثمّ الصّدق. ثمّ الصّبر و هو آخر مقامات المريدين. ثمّ الصّبر و هو ترك الشّكوى. ثمّ الرّضا. ثمّ الإخلاص ثمّ التّوكّل و أمّا الأحوال فهي معاملات القلوب، فمن ذلك المر اقبة ثمّ القرب. ثمّ المحبّة. ثمّ الرّجاء ثمّ الخوف. ثمّ الحياء ثمّ الشّوق. ثمّ الأنس. ثمّ الطّمأنينة ثمّ اليقين ثمّ المشاهدة و هو آخر الأحوال. ثمّ تكون فواتح و روائح و منائح تخفى عليها العبارات، ﴿فَعِنْدَ اللَّهِ مَغانِمُ كَثِيرَةٌ﴾" (السُلّمي، 1369: ج3، 554)، إلا أنه ينبغي التنبيه على أن فتوح النبي ﷺ الثلاثة لا تُقاس بالفتوح التي يصل إليها العارف بعد طيّ منازل السلوك و الأحوال.

لقد ذُكرت الفتوح منذ أوّل نشأة التصوف و العرفان، ففي كتاب اللُّمع باب بعنوان "باب في ذكر آدابهم إذا فُتح عليهم شيء من الدنيا) (السراج، 1914: 193) و تكررت مصطلحات مثل (فتح، فتوح، فتح الباب، فتوحات) إلا أنّ الفتوح في بدايتها اشتهرت بالفتوح الظاهرية و الدنيوية مثل الرزق و المال و الطعام الذي يصل السالك من حيث لا يحتسب وكيفية تعامل السالك مع هذا الفتح، إلا أنّ للفتوح معنى آخر ذُكرِفي آثار السرّاج و الأصفهاني فأُطلق على الواردات الغيبية، يذكر السرّاج في اللمع: " علم الفتوح يفتح الله تعالى على قلوب أوليائه فى فهم كلامه و مستنبطات خطابه ما شاء كيف شاء " (السراج، 1914: 18) ، و قد ارتبط بحث الفتوح منذ نشأته بالتوكل نجد القشيري مثلا قد بحث العلاقة بين الفتح و التوكل (القشيري، 1374: 268)، و المحقق عبدالله الأنصاري الذي

اعتبر الفتوح ميداناً من مئة ميدان للسير و السلوك، إلى أن أشار سهل التستري و ابن عطاء في تفاسيرهم التأويلية إلى الفتوح ثم ذكر رشيد الدين الميبدي (530هـ ق) في كتابه كشف الأسرار و عدّة الأبرار بأن "الفتح" يراد به الفتح الغيبي و هو مصطلح قرآني، حيث أشار إلى تفسيره العرفاني في ذيل الآية الكريمة: ﴿نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ﴾ (الميبدي، 1371هـ ش، ج10: 654)، كما أشار عين القضاة الهمداني (525 هـ ق) إلى الفتح القريب في كتاب التمهيدات (الهمداني، 1341: 75) حيث كانت هذه بداية إدغام بحث (الفتح و الفتوح) بالتفاسير العرفانية، ثم وصل هذا الإدغام إلى أوْجِه على يد عبد الرزاق الكاشاني في تأويلاته حيث ذكر أنّ للنبي ﷺ ثلاثة فتوح و هي مذكورة في القرآن الكريم: (فتح قريب)، (فتح مبين) (فتح مطلق). و استقرت هذه الفتوح الثلاثة في كتب العرفان العملي بخطوطها العامة و إن تمايزت تعاريف العرفاء لها تمايزا جزئياً. كما ذُكرت أقسام أخرى للفتوح، فقد قسَّمها الكاشاني في تقسيم آخر إلى: فتوح العبارة و الحلاوة و المكاشفة و المضيق و غيرها، و قسّمها ابن عربي -تبعا إلى تقسيم أبو منصور الأصفهاني ثم القشيري- إلى فتوح العبارة في الظاهر و الحلاوة في الباطن و المكاشفة بالحق حيناً(بن عربي، بلاتا:ج2، 505)، و إلى الفتح الإيجادي -كل فتح يتنزل من الحق الى الانسان- و الفتح العرفاني -كل فتح يعرج به الانسان الى الحق- حيناً آخر (الحكيم، بلاتا: 864). مع التنبيه إلى أنّ التقسيم الأول كان يبدأ بفتوح العبادة، إلا أنّ ابن عربي غيرّه إلى فتوح العبارة.

البحث الذي بين يديك يتناول أقسام الفتوح الثلاثة للنبي الأكرم ﷺ عند كل من عبد الرزاق الكاشاني و السيد الإمام الخميني من حيث المسائل التالية:

1. تعريف فتوح النبي ﷺ الثلاثة

2. تفسير ذنب النبي ﷺ المذكور في الآية الكريمة ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ ما تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَ ما تَأَخَّرَ﴾. (الفتح:2).

لكن قبل البدء في بحث الفتوح لابد من توضيح مقدّمات البحث و هي عبارة عن: مراتب النفس، مراتب الولاية النزولية و الصعودية.

مراتب النفس

للانسان بُعدان: مادي و غير مادي، و للبُعد غير المادي مراتب، هناك عدّة تقسيمات لمراتب النفس في الفلسفة و العرفان من أشهرها التقسيم السباعي و هو: الطبع، النفس، القلب، الروح ، السِّر، الخفي، الأخفى (مولوي،1416: 520) و قد ذكرها ملا صدرا بنحوٍ آخر مشيراً إلى أنّ مراتب النفس تتطابق مع مراتب القرآن الكريم: " ورد في الحديث: أن للقرآن ظهرا و بطنا و لبطنه بطن إلى سبعة أبطن و هو كمراتب باطن الإنسان من النفس و القلب و العقل و الروح و السر و الخفي و الأخفى " (صدر المتألهين، 1363: 39) حيث يعتبر الطبع من المراتب الظاهرية وليس من أبطُن النفس السبعة. كما تُعرف هذه الأبطن السبعة للنفس باللطائف السبعة ، في حين أن

الطبع تُعدّ مرتبة من مراتب النفس لكنها ليست لطيفة من اللطائف. أما التقسيم الثلاثي للنفس فهو تقسيمها إلى: النفس و القلب و الروح. يمكن القول أنّ بين هذين التقسيمين تفصيل و إجمال.

يمكن تقسيم المراتب السباعيّة إلى قسمين أيضاً، قسم منها يسمى بالمراتب الخلقيّة (وهي: النفس، و القلب و العقل)، و قسم آخر يسمى بالمراتب الحقيّة (وهي: السر و الخفي و الأخفى)و الواسطة البرزخ بين القسمين هي مرتبة الروح.

نبيّن هذه المراتب بناء على تعريفات عبدالرزاق الكاشاني في كتابه الاصطلاحات، و بالاستعانة ببعض عبارات السيد الإمام الخميني.

الطبع : ترتبط بالقوى الظاهرية للانسان التي ترتبط بالأقاليم السبعة : الأذن و العين و اللسان، و البطن و الفرج و اليد و الرجل. (الخميني، **1422**: **28**)

النفس: يراد بها الروح الحيوانية و هي الواسطة بين القلب -القلب عند العرفاء هو النفس الناطقة عند الحكماء- و الروح المجردة. (الكاشاني، **1426**: **82**)

القلب: و هو النفس الناطقة عند الحكماء، باطنه الروح و ظاهره النفس الحيوانية، و للقلب مراتب و أطوار(الكاشاني، **1426**: **65**). قال رسول الله ﷺ «قلب المؤمن بين إصبعين من أصابع الرحمن» الإصبع الواحدة نعمة التجلّي المتعيّن من حضرة الجلال و القهر و الوحشة و الستر، و الإصبع الأخرى نعمة التجلي المتعين من حضرة الجمال و

اللطف و الأنس و النور و الحياة و النشر. و الأوّل يختصّ بجسمانيته. و الثاني يتعلّق بروحانيته. و الإصبع في اللغة العربية هي النّعمة، فقلب المؤمن بين نِعَم التجلّيات الجلالية والجمالية الظلمانية الموجِبة لسكون النورية الروحية فيها و بين نِعم التجلّيات الجمالية الروحانية النورانية، فالقلب يعرج في أطواره إلى أن تتحقق حقيقته القلبية و هي أحدية جمع النعمتين و التجلّيين.(الجندي: **1423**، **93**).

الروح: هي لطيفة مجردة، ظاهرها القلب و باطنها السّر ، و لها مراتب. كما أن كمال مرتبة من مراتب النفس يتمّ في المرتبة التي تليها.

السّر: هو ما يخصه الحق لبني آدم عند التوجه الإيجادي له (الكاشاني، **1426**: **34**)، فمرتبة السر في نفس السالك هي التجلي الأفعالي للحق سبحانه و تعالى (الأسماء الفعلية) و هي مرتبة من مراتب إشهاد الله لبني آدم (ألستُ بربكم) و هذا التجلي عندما يحصل للسالك في قوس الصعود يؤدي إلى الفناء الأفعالي فيشاهد السالك أنه لافاعل إلا الله ، و ينتج عنه التوحيد الأفعالي و الولاية الأفعالية.

الخفي : هي تجلي الأسماء الصفاتية للحق سبحانه و تعالى في النفس الانسانية، و هي مرتبة ثانية من مراتب إشهاد الله لبني آدم، و عندما يعيش السالك مرتبة الخفي في قوس الصعود ، يشاهد أنه لا كمال و لا جمال إلا لله فيحصل الفناء الصفاتي و ينتج عنه التوحيد الصفاتي و الولاية الأسمائية الصفاتية. هنا يلحظ السالك التمايز بين

الاسم و الذات فيُعرف هذا المقام ب (قاب قوسين) و هو مقام القرب الأسمائي باعتبار تقابلها في دائرة الوجود، فالتمايز بين الأسماء هو تمايز اعتباري لكنه يؤدي إلى مشاهدة الأسماء المتقابلة كالإبداء و الإعادة و النزول و العروج و غيرها، فلا زال السالك يعيش الكثرة و إن كانت كثرة أسمائية.

الأخفى: تجاوز السالك ذلك اللحاظ و الاعتبار الذي يميّز الأسماء عن الذات ، مما يؤدي إلى تلطيف نفس السالك أكثر و ترقّيها إلى مقام الأخفى و هي مقام (أو أدنى)، إزالة هذا التمايز يتم بتجلي مرتبة الأخفى التي في حقيقتها تجلي الذات الأحدية، و هي مرتبة من مراتب إشهاد الله لبني آدم، فيحصل الفناء المحض و تزول كل الرسوم و التعينات بالكليّة، فلا يشاهد السالك نفسه مطلقا حيث يصبح تحت قهّارية الحاكم على الإطلاق سبحانه و تعالى و بهذا يتحقق التوحيد الذاتي و الولاية الذاتية.

الولاية و الخلافة النزولية و الصعودية

الولاية باطن النبوة ، للنبي وجهان، ما يلي الحقّي و باعتبار هذا الوجه هو الولي، و ما يلي الخلقي و باعتبار هذا الوجه هو النبي ﷺ، فالنبوة إخبار عن الحق سبحانه و تعالى و هي على أقسام و مراتب لا تهمّنا في هذا البحث.

ما يهمّنا هو التنبيه على أنّ الخلافة هي خلافة في الظهور، مثلا عندما يقال النبي ﷺ خليفة الله في الأرض؛ يعني أن ظهور عالم الأرض و نَظْمه الحاكم عليه -أي جعل كل عنصر

في موطنه الملائم للوصول إلى كماله المطلوب- وكمالاته واستمراره يتم بواسطة النبي ﷺ، إذن كون النبي ﷺ خليفة في حضرة الأسماء أي أنّه الواسطة في ظهور الأسماء، وكون النبي ﷺ خليفة في عوالم الخلق (عالم العقول، المثال، المادة) يعني أنه واسطة في ظهورها، و هذا معنى أنه البرزخ الأكبر بين الذات الأحدية و الخلق.

أما المراد بالولاية فهو القُرب، و هي على قسمين: ولاية عامة و ولاية خاصة. الولاية العامة تشمل كل من يؤمن بالله و يعمل صالحاً: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾، أما الولاية الخاصة فهي تختص بالفاني في الله سبحانه.

الفناء على ثلاث مراتب وهذه المراتب هي مراتب الولاية في قوس الصعود:

الفناء الفعلي : هو مقام (التدلّي) و العبودية

الفناء الصفاتي: هو مقام (قاب قوسين)

الفناء الذاتي: هو مقام (أو أدنى)

أما أقسام و مراتب الولاية الخاصة في قوس النزول فهي على النحو التالي:

الولاية الذاتية و لها مرتبتان: ولاية الفيض الأقدس، و لاية اسم الله الأعظم، و هذا القُرب خاص بالنبي الأكرم ﷺ.

الولاية الصفاتية : هي ولاية العين الثابتة للانسان الكامل و تسمى أيضاً بالعين الثابتة المحمدية.

الولاية الأفعالية ولها ثلاث مراتب هي: ولاية الفيض المقدّس، ولاية العقل الكلي في عالم الأمر، ولاية الوجود العنصري للنبي والولي في عالم الخلق.

يتحد النبي ﷺ و الولي في كل مراتب الولاية و الخلافة -حيث لا يوجد اثنينية أو تمايز- ولا يفترقان إلا في الوجود العنصري في عالم الخلق.

هذه المراتب تحتاج توضيح ولكن توضيحها سوف يخرجنا عن مقصود البحث، هنا نريد أن نشير إلى أنّ الوجود العنصري للنبي محمد ﷺ، هو آخر مراتب الولاية الأفعالية، فأصبح مقيداً بقيود عالم الخلق من جهة ما يلي الخلقي و إن كان في بطونه و حقيقته و جِهة ما يلي الحقي مطلقاً و مقامه مقام (أو أدنى) من حيث الولاية والقرب من الله سبحانه و تعالى، وهو مقام الولاية الذاتية في قوس النزول الذي ظاهرها اسم الله الأعظم وباطنها الفيض الأقدس وهو مقام مختص به ﷺ، يقول السيد الإمام في مصباح الهداية أن مقام الولاية الذاتية للنبي ﷺ أي الفيض الأقدس هو الخليفة في ظهور الأسماء وبالتالي هو النبي ﷺ الذي أنبأ بها وكان الحَكَم العدل بين الأسماء، وهو أيضا رب الولاية العلوية المتحدة مع حقيقة الخلافة المحمدية في نشأة الأمر والخلق.

هذه المقدّمة سوف تساعدنا فهم ذنب النبي ﷺ و غفران ذنبه. إلا أنه قبل بحث ذنب النبي ﷺ و غفرانه ينبغي تبيين فتوح النبي ﷺ الثلاثة.

فتوح النبي ﷺ عند الكاشاني و السيد الإمام الخميني

تعريف الفتح:

يُعرَّف الفتح في المتون العرفانية غالباً بالنصر أو انفراج الأمور المادية -مثل المال أو اللباس و غيرها- على السالك بطريق غير متوقع، إلا أنّ معناه يشمل كل احتياجات السالك الروحية و المادية.

يعرّف الكاشاني الفتح بأنه كل ما يُفتح على العبد من الله تعالى بعد ما كان مُغلقاً عليه من النِّعم الظاهرة و الباطنة كالأرزاق و العبادة و العلوم و المعارف و المكاشفات و غير ذلك. (الكاشاني، 1426: 62). المعنى الغالب في بيانات الكاشاني للفتوح الثلاثة هو الفتوح في قوس الصعود، و هي على نوعين فتح الظهور و التجلي للحق سبحانه الفعلي و الصفاتي، يشاهد هذا الفتح السالك في الأمور المادية و الظاهرية، و فتح الكشف و المشاهدة اليقينية و القلبية و الروحية و السريّة -بناء على مراتب النفس-، و هذا النوع هو الذي ركّز عليه الكاشاني في بيانه للفتوح الثلاثة (الفتح: القريب، المبين، المطلق).

ذكر السيد الإمام الخميني تعريفين إلى الفتح أحدهما يبتني على نظرية الظهور و التجلي و يغلب عليه التجلي في قوس النزول، و الآخر يبتني على الكشف و المشاهدة في قوس

الصعود، ففي كتاب شرح دعاء السحر يعرّف الفتح من خلال الإشارة إلى تجليات ثلاثة جمعيّة وهي:

1. تجلي الأكوان في فاتحة المشيئة الإلهية، ومن خلال التجلي الأول إلى المشيئة أي عالم العقول والأرواح، وبناء على اتحاد الظاهر والمظهر فإن المشيه هي عين عالم العقول والأرواح وما دونه.

2. تجلي الانسان في فاتحة الانسان الكامل الذي هو في أفق المشيئة الإلهية وهو عينها أيضاً وجامعيته لما دونه.

3. تجلي القرآن في فاتحة القرآن؛ بل في بسمَلتها، وجامعيتها لكل ما تمّ تفصيله فيه.

كما أشار السيد الإمام إلى وحدة فتح التجليات وختمها وأنهما –أي الفتح والختم- واحد في قوسي النزول والصعود وقد تميز تعريف السيد الإمام بدمجه لثلاثية القرآن والأكوان والانسان الكامل في تعريفه للفتح، يقول السيد الإمام في ذيل بيان العبارة: " اللَّهُمَّ انّي أسْئَلُكَ مِنْ كَلِماتِكَ بِأتَمّها، وكُلُّ كَلماتِكَ تامَّةٌ، اللَّهُمَّ انّي أسْئَلُكَ بِكَلِماتِكَ كُلِّها": إنّ عوالم الوجود وإقليم الكون من الغيب والشهود كتاب وآيات وكلام وكلمات، وله أبواب مبوبة، وفصول مفصلة، ومفاتيح يفتتح بها الأبواب، ومخاتيم يختتم بها الكتاب؛ ولكل مفتاح أبواب، ولكل باب فصول، ولكل فصل آيات، ولكل آية كلمات، ولكل كلمة حروف، ولكل حرف كلمة زبر وبينات.

ففاتحة الكتاب التكويني الإلهي الذي صنفه (تعالى جده) بيد قدرته الكاملة، التي فيها كل الكتاب بالوجود الجمعي الإلهي المنزه عن الكثرة، المقدس عن الشين و الكدورة، بوجه هو عالم العقول المجردة و الروحانيين من الملائكة، و التعين الأول للمشية؛ و بوجه عبارة عن نفس المشية، فإنها مفتاح غيب الوجود. و في الزيارة الجامعة: بكم فتح الله، لتو افق أفقهم عليهم السلام لأفق المشية، كما قال الله تعالى حكاية عن هذا المعنى: ثُمّ دَنا فَتَدَلّى، فَكانَ قابَ قَوسَيْنِ أَوْ ادْنى. و هم عليهم السلام من جهة الولاية متحدون، أوّلنا محمّد، أوسطنا محمّد، آخرنا محمّد. كلّنا نورواحد. ولكون فاتحة الكتاب فيها كل الكتاب، و الفاتحة باعتبار الوجود الجمعي في بسم الله الرحمن الرحيم، و هو في باء بسم الله، و هو في نقطة تحت الباء، قال على عليه السّلام: أنا النقطة، وورد: بالباء ظهر الوجود، وبالنقطة تميّز العابد عن المعبود.

و خاتمة الكتاب الإلهي و التصنيف الرباني عالم الطبيعة و سجلّ الكون بحسب قوس النزول، و الاّ فالختم و الفتح واحد، فإن ما ينزل من سماء الإلهية يعرج إليه في يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدّون. و هذا وجه خاتمية النبي المكرم و الرسول الهاشمي المعظم الذي هو أول الوجود، كما ورد: نحن السّابقون الاخرون.

و بين فاتحة الكتاب و خاتمته سُور و أبواب و آيات و فصول. فإن اعتبر الوجود المطلق و التصنيف الإلهي المنسّق بمر اتبه و منازله كتابا واحدا يكون كل عالم من العوالم الكلية بابا و جزوا من أبو ابه و جزو اته. وكل عالم من العوالم الجزئية سورة و فصلا، وكل مرتبة

من مراتب كل عالم أوكل جزء من أجزائه آية وكلمة. وكان قوله تعالى: ﴿وَ مِنْ آياتِهِ انْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرابٍ ثُمَّ اذا انْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ﴾، إلى آخر الآيات، راجع إلى هذا الاعتبار. و إن اعتبرت سلسلة الوجود كتبا متعددة و تصانيف متكثرة، يكون كل عالم كتابا مستقلا له أبواب و آيات وكلمات باعتبار المراتب و الأنواع و الأفراد وكان قوله تعالى: لا رَطْبٍ وَلا يابِسٍ الاّ في كَتابٍ مُبينٍ بحسب هذا الاعتبار. و إن جمعنا بين الاعتبارين، يكون الوجود المطلق كتابا له مجلدات، كل جلد كتاب له أبواب و فصول و آيات بينات. (الخميني، **1428**: **51**)انتهى كلام السيد الإمام قدّس سرّه.

لقد ذكر السيد الإمام التعريف الآخر للفتح في كتاب الأربعون حديثا، و هو منقول عن أهل العرفان، يقول: الفتح في مشربهم عبارة عن فتح أبواب المعارف و العوارف و العلوم و المكاشفات على الانسان من قِبل الحق سبحانه بعد أن كانت مُوصدة في وجهه ومغلقة عليه.(الخميني، **1422**: **368**).

إنّ الفتوح عند الكاشاني ترتبط بقوس الصعود، و بمراتب النفس الانسانية، و قد ذكرنا أن للنفس مراتب سباعية و ثلاثية، و الفتوح الثلاثة عند العرفاء تناظرِ المراتب الثلاثية. ذكرنا أن بين المراتب السباعية و الثلاثية إجمال و تفصيل، نبيّنه باختصار في مايلي:

للنفس مراتب ثلاث هي:

النفس : ولها مراتب أعلاها ما تصل إليه في السير و السلوك من الفناء الأفعالي الناتج من التجلي الأفعالي، فإذا أردنا أن نطابق بين التقسيم الثلاثي لمراتب النفس و السباعي، تصبح مراتب النفس ومنازلها هي : الطبع ، القلب، الروح ، السّر.

مع التنبيه على أن كمال كل مرتبة في ما يليها ، فكمال مرتبة السر يتم في مرتبة القلب وهكذا.

القلب : هي واسطة بين النفس و الروح و فيها يحصل التجلي الأسمائي فينتج عنه الفناء الأسمائي. و هي تطابق الخفي في التقسيم السباعي. و سميت قلباً لأنها تقلب وجود السالك من وجهِه الخلقي إلى الوجه الحقّي و ذلك بتبدُّل صفاته بصفات الحق سبحانه، و هي على مراتب أيضاً، و قد مرّ أن كمال كل مرتبة في المرتبة التي تليها ، لذلك فإن آخر مراتب القلب تكون في باطن الروح.

الروح: وهي الظهور الذاتي الأحدي و فناء الأسماء و التعينات و فناء ذات السالك - كما مرّ- و هي مرتبة الفناء الذاتي، و تطابق الأخفى في التقسيم السباعي.

يلزم التنبيه على أنّ مراتب النفس لا متناهية -كما هو الحال في مراتب القرآن- و أنّ هذه التقسيمات كليّة لا تُحدّ النفس بها.

أقسام الفتوح:

لقد ذكر الكاشاني تقسيمين إلى الفتوح، أحدهما –وهو التقسيم المذكور في كتاب لطائف الأعلام-هو:

فتوح العبارة: وهو فتح ظاهري يحسن صاحبه التعبير عمّا يجده

و فتوح الحلاوة: و هو فتح باطني لأنواع المعارف و تقريب الحق للعارف.

و فتح المكاشفة و هو ما يشاهده العارف من مكاشفات و إن كانت وَهْبيَّة.

و فتوح المضيق وفيه ينتقل الانسان في أطواره، ثم يذكر مراتب فتوح المضيق و التي تبدأ من فتح مضيق التولُّد أي الخروج من رحم الأم ، ثم فتح باب الفهم أي إدراك البديهيات و به يخرج من مضيق الجهل، ثم فتح باب الإسلام و به يمتاز الانسان عن الأنعام و يخرج من مضيق الحيوان، ثم فتح باب العقل و الاستدلال و به يخرج الانسان من مضيق غلبة الأوهام، ثم فتح باب النفس حيث يُعطى العلم التام عقلا و نقلا و يخرج من مضيق العقل، ثم فتح باب الروح فيُعطى المعرفة شهودا و عيانا و يخرج من مضيق العلم و التعلم النظري، ثم فتح باب القلب و هو تولده من مضيق مشيئة النفس، ثم الفتح المبين و هو أعلى الفتوحات و هو فتح تجليات الحقيقة و كشف الأنوار الحقيّة من مضيق سجن الخليقة و هنالك الولاية للحق سبحانه تعالى. (الكاشاني، 1426هـ ق، ج2، 559).

وقد ذكرها السيد الإمام متناثرة في آثاره العرفانية بل زاد عليها الكثير، كما لم يكتف بتعريفها بل ذكر كيفية تحصيلها و آفاتها، و ذكر بعضها بمصطلح آخر، مثلا نجد السيد الإمام يذكر معنى "فتح العبارة" تحت عنوان "فتح المكالمة و المناجاة" و كيف يُحسِن العبد اختيار عباراته في مناجاته مع الله و أسباب إساءة المكالمة مع الله سبحانه (الخميني، 1378: 24)، كما ذكر فتح باب العبادة و العبودية و الكرامة (الخميني،بلا: 224) و المراودة و المكاشفة (الخميني، 1370: 219) فتح باب القلب و الولاية (الخميني، 1422: 366) فتح باب معرفة الله (الخميني،بلا: 372) ، فتح باب الشكر (الخميني،1377: 189) ، فتح باب الكشف و الشهود (الخميني،بلا: 506)، الفتوحات الظاهرية و الباطنية (الخميني، 1370: 56)، فتح أبواب عبادة الروح و القلب (الخميني، 1378: 65)، فتح أبواب الطلب (الخميني، 1378: 77)، فتح كعبة القلب (الخميني، 1378: 60)، و فتح الأقاليم السبعة (الخميني،بلا: 292) و غيرها.

التقسيم الثاني للفتوح عند الكاشاني هو تقسيم فتوح رسول الله ﷺ و هي ثلاثة: الفتح القريب و المبين و المطلق. لقد ذكر الكاشاني هذا التقسيم في كتابيه: "التأويلات" و "الاصطلاحات الصوفية". و ذكره السيد الإمام في ثلاثة من كتبه هي، "الأربعون حديثا" ، "سرّ الصلاة"، "التعليقات على شرح الفصوص و مصباح الأنس".

سنتطرق في ما يلي إلى آراء الكاشاني و السيد الإمام في الفتوح الثلاثة بالاعتماد على هذه الكتب الخمسة.

1/ الفتح القريب

يُعرّف الكاشاني الفتح القريب بأنه: ما انفتح على العبد من مقام القلب و ظهور صفاته و كمالاته عند قطع منازل النفس(الكاشاني،**1426**: **62**)، أو هو فتح باب القلب بالترقي عن مقام النفس و هو المشار إليه بقوله تعالى: ﴿نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ﴾ (الصف: **13**). و يلزمه البشارة بالأنوار الملكوتية و التجليات الصفاتية كما قال: ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (الأحزاب: **47**). و حصول المعارف اليقينية و كشوف الحقائق القدسية المشار إليها بقوله: ﴿وَمَغانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَها﴾ (الفتح:**19**). (الكاشاني، **1422**، ج**2**: **268**).

إذن الفتح القريب عند الكاشاني هو عروج السالك في منازل النفس أي (الطبع، النفس، القلب، الروح، السِرّ) و نيله القُرب الأفعالي الذي يبشّره بالقُرب الأسمائي الصفاتي، و يسمى بالفتح القريب لأنه يقرّب السالك إلى أُفق التجليات الأسمائية، و إذا حصل للسالك تجلي أسمائي فإنه يكشف الحقائق القدسية التي هي عبارة عن لوازم الأسماء أي الأعيان الثابتة.

في حين يعرّف السيد الإمام الفتح القريب بقوله: هو عندنا فتح الأقاليم السبعة و ذلك بإخراج جنود الشيطان منها، و نتيجتها التجلي بالتوحيد الأفعالي ﴿نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ

قَرِيبٌ﴾. (الخميني،1378: 60). وقد شرح السيد الإمام فتح الأقاليم السبعة بالتفصيل في شرحه للحديث الأول من الأربعون حديثا، و أشار إلى أنّه عندما يلتزم الانسان بالشرع و يقتدي بالنبي الأكرم ﷺ، يقع التجلي الأفعالي له فلا يرى فاعلية إلا لله سبحانه. (الخميني، 1422، 28).

عرّف السيد الإمام الفتح القريب بالمنزل الأول من منازل النفس وهو الطبع، و ذلك لأن الأقاليم السبعة ترتبط به و إن كان في تتمة التعريف أشار إلى أنّ هذه المنازل تمتد إلى أن يحصل التجلي الأفعالي، إلا أنّ الطبع يعدّ من مراتب النفس الظاهرية و ليس من البطون، على خلاف تعريف الكاشاني الذي يرى أن الفتح القريب يرتبط ببطون النفس.

يرى الكاشاني أن الفتح القريب يحصل بالمكاشفات الغيبية و الأنوار اليقينية (الكاشاني، 1422، ج2: 268)، وفي مورد آخر صرّح بأنّ ذكر الله يجلب الفتوح (الكاشاني، 1380: 627)، و قد ذكر السيد الإمام أنّ الأقاليم السبعة الظاهرية و الممالك الباطنية جميعها تُفتح بذكر الحق سبحانه و تعالى (الخميني، 1422، 322) إلا أنّه خصّص بحثاً لتبيين كيفية فتح الأقاليم السبعة المُلكية الظاهرية و هي : الأذن و العين و اللسان و البطن و الفرج و اليد و الرجل، التي تقع تحت تصرف النفس في مقام الوهم، و أنّ فتحها يتم بخضوع الوهم لحكم العقل و خضوع كلاهما لحكم الشرع و بذلك يتم انتصار الانسان على قواه الظاهرية و إخراج الشيطان منها، أما إذا استقل الوهم بإدارة تلك الأقاليم

السبعة أو أدارها بتدخل الشيطان فقد أصبحت تلك القوى جنودا للشيطان و هُزم الانسان في هذا الميدان. (الخميني، 1422، 28).

أما في ما يرتبط بإمكانية وصول المؤمنين إلى هذا الفتح فإن الكاشاني يذكر أن أكثر المؤمنين قد شارك النبي ﷺ في الفتح القريب كما أشار إليه بقوله: ﴿وَ أُخْرى تُحِبُّونَها نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَ فَتْحٌ قَرِيبٌ﴾(الصف:13)، و قوله: ﴿فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَ أَثابَهُمْ فَتْحاً قَرِيباً﴾ (الفتح:18) (الكاشاني، 1422، ج2: 268)، و يصرّح السيد الإمام الخميني بأنّ هذا الفتح لا يختص بالنبي الأكرم ﷺ (الخميني، 1410: 216).

إذن يرى الكاشاني أنّ الفتح القريب هو فتح مقام القلب وهو من الفتوح الغيبية، في حين يرى السيد الإمام أن الفتح القريب يبدأ بفتح الأقاليم السبعة الظاهرية. كما ينبغي الإشارة إلى أن السيد الإمام ذكر تعريفات الفتح عند الكاشاني في كتاب الأربعون حديثا و أشار إلى أن الفتح القريب هو فتح مقام القلب بالخروج من بيت النفس و ترك التعلقات و الرغبات النفسية إلا أنّه لا يمكن عدّ هذا الرأي هو رأي السيد الإمام و ذلك لسببين: الأول أنه يُستظهر من سياق كتاب الأربعون حديثا أنه ينقل عن العرفاء، حيث ذكر بداية البحث عبارات مثل: "ذوق أهل العرفان"، "الفتوحات الشائعة عندهم"، و الثاني أن السيد الإمام انتهى من تأليف كتاب الأربعون حديثا تاريخ (1358/1/4) في حين انتهى من تأليف كتاب سر الصلاة -الذي صرّح فيه أن الفتح القريب هو فتح الأقاليم السبعة- تاريخ (21/ 4/

1358) و بالتالي يتقدّم تأليف الأربعون حديثا على سر الصلاة، فالرأي النهائي هو ما ذُكر في سر الصلاة، و أيضا يمكن الاستعانة بالتقارب الزماني بين التأليفين لزيادة الاطمئنان بأنّ السيد الإمام في تأليفه الثاني (سر الصلاة) قصد ذكر تصوره الخاص في الفتح القريب بعد أن ذكر التصوير الشائع له و شرحَه في كتاب الأربعون حديثاً. كما يمكن الجمع بين القولين في الفتح القريب و ذلك باعتبار أنّ فتح الأقاليم السبعة هي أولى درجات الفتح القريب و أقربها، و فتح القلب و الخروج من بيت النفس هو آخر درجات الفتح القريب. و من مؤيدات هذا الجمع تعبير السيد الإمام عندما بيّن نتائج الفتح القريب حيث ذكر أنّه: مع الفتح القريب تُفتح أبواب المعارف القلبية و تُغفر الذنوب النفسية. (الخميني، 1422: 370)، إلا أنه يجب التذكير بأن مرتبة القلب من عالم الأمر ، في حين مرتبة النفس و الأقاليم السبعة هي من عالم الخلق. (كاشفي، 2008: 549)

2/ الفتح المبين

يرى الكاشاني أنّ السالك إذا بقي في مقام القلب فإنّ النقوش و التعيّنات تستحوذ عليه من هنا يحتاج السالك إلى فتح جديد بعناية الله و توفيقه و هو فتح تجليات الأسماء و الصفات على قلب السالك لتُزيل تلك التعينات من القلب، من هنا يعرّف الكاشاني الفتح المبين بأنه: ما انفتح على العبد من مقام الولاية، و تجليات أنوار الأسماء الإلهية المعيّنة لصفات القلب وكمالاته المشار إليه بقوله تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً (1) لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ ما تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَ ما تَأَخَّرَ﴾ (الفتح: 1- 2). (الكاشاني، 1426: 62).

الغفارية في الآية الكريمة تعني تلك الإزالة للتعينات بواسطة تجليات الأسماء و الصفات. لقد عبّرت الآية بما تقدم و ما تأخر من الذنب لأن التعينات على نحوين: نفسية و قلبية. يذكر الكاشاني أن الفتح المُبين يحصل بظهور أنوار الروح و ترقي القلب إلى مقامه و حينئذ ترقى النفس إلى مقام القلب فتستتر صفاتها اللازمة إياها السابقة على فتح القلب من الهيئات المظلمة بالأنوار القلبية و تنتفي بالكلية. كما يذكر الكاشاني نتيجة هذا الفتح و هي حصول مغانم المشاهدات الروحية و المسامرات السرية. (الكاشاني،1422،ج2 : 268).

في الفتح المبين تكمُل المرتبة السابقة و هي مرتبة السر في التقسيم السباعي، فتحصل المسامرات السريّة أي يشاهد السالك أنه لا فاعل إلا الله و تتحقق الولاية الأفعالية، ويعدّ هذا ذنب للسالك لأنه محدود بمشاهدة فعل الله، هذا هو الذنب المتقدّم. ثم بمقدار قابلية السالك تتجلى له الأسماء و الصفات فيتخلص من ذلك الذنب و تلك المحدودية و تستتِر صفاته الخلقية بل تزول و تتبدل إلى صفات الحق سبحانه و هذا معنى الغفارية في الفتح المبين، إلا أنّ هذا الفتح و الاستتار محدود بقابلية السالك لذلك هو ذنب أيضاً و هو الذنب المتأخر هنا.

في حين يعرّف السيد الإمام الفتح بالمبين بأنه فتح كعبة القلب بإخراج الشيطان المُوسوِس منه ﴿إنا فتحنا لك فتحا مبيناً﴾. (الخميني،1378: 60) ، إلا أنه يشرح بيان الكاشاني للفتح المبين ثم يشير إلى نتائج هذا الفتح حيث يُفتح عالم الأسماء و الصفات

للسالك ويحصل التجلي الأسمائي وبالتالي التوحيد والفناء الأسمائي، وهذا الفتح هوفتح باب الولاية عند السيد الإمام أيضاً. (الخميني، 1422، 369). وذلك لأن الأسماء الإلهية صمدية لا يمكن أن يفتحها الانسان وتتجلى فيه إلا بعد تجاوزمنزل النفس بالكليّة والفناء في إرادة الانسان الكامل، عندها تنفتح للسالك أبواب التجليات الأسمائية، كما أنه في هذا الفتح يصل السالك إلى بعض مراتب الولاية.

إذن مع الفتح المبين تنفتح أبواب الولاية و التجليات الإلهية و تُغفر البقايا من الذنوب المتقدّمة النفسية و الذنوب المتأخرة القلبية أي أنها تُستتر و تزول (الخميني، 1422، 370).

صرّح السيد الإمام أنّ هذا الفتح متيسّر للأنبياء و الأولياء و العرفاء (الخميني، 1422: 370) و أنه لا يختص بالنبي الأكرم ﷺ صاحب الولاية المطلقة (الخميني، 1410: 216).

3/ الفتح المطلق

إذا بقي السالك في التجليات الأسمائية فإنها تحجبه عن أبواب التجليات الذاتية. من هنا يعرّف الكاشاني الفتح المطلق بأنه: ما انفتح على العبد من الفرق بين الكمال و الشرف والنقص والخشية: والكمال عبارة عن حصول تجلي الذات الأحدية، والاستغراق

في عين الجمع بفناء الرسوم الخلقية كلها، وهو المشار إليه بقوله تعالى: ﴿إِذا جاءَ نَصْرُاللَّهِ وَ الْفَتْحُ﴾ (النصر: 1). (الكاشاني،1426: 62) و هو فتح باب الوحدة بالفناء المطلق و الاستغراق في عين الجمع بالشهود الذاتي و ظهور النور الأحدي. (الكاشاني، 1422، ج2، 268).

وقد عرّف السيد الإمام الفتح المطلق بقوله: هو ترك الرسوم الخلقية و إفناء التعينات الشهادتية و الغيبية ﴿إِذا جاءَ نَصْرُاللَّهِ وَ الْفَتْحُ﴾. (الخميني، 1378، 60)، فإذا بقي السالك في حجاب تعينات الأسماء -وهي التعينات الغيبية التي يجب أن يزيلها ويسترها و هذا معنى آخر لغفران الذنب- تكون أبواب التجليات الذاتية مغلقة في وجهه ، و حينما يتحقق الفتح المطلق للتجليات الذاتية على قلبه فإنّ هذا التجلي يبيد التعينات بتمامها من قلبه فلا يبقى منها شيء على الإطلاق بل يغرق السالك و يفنى و تستتر ذاته عنه في بحر قهارية التجلي الأحدي.

لقد أشار الكاشاني إلى ما يترتب على الفتح المطلق وهي : المغفرة المذكورة و إتمام النعمة الصفاتية و المشاهدات الجمالية و الجلالية بكمال مقام القلب كما ذكر، و الهداية إلى طريق الوحدة الذاتية بالسلوك في الصفات و انخراق حجبها النورية و انكشاف غيومها الرقيقة حتى الوصول إلى فناء الإنية و النصرة العزيزة بالوجود الموهوب و التأييد الحقاني الموروث بعد الفناء.(الكاشاني، 1422، ج2: 269) كما أشار السيد الإمام إلى أنه بعد حصول الفتح المطلق تُفتح كل التصرفات الإلهية و تحصل نتيجة قرب النوافل.

(الخميني، 1378: 60) ، و من نتائج قرب النو افل التخلق بأخلاق الله و الفناء الصفاتي (الخميني، 1410، 110) و منه أيضا الفناء الذاتي (الخميني، 1410، 60).

أما في ما يرتبط بإمكانية وصول المؤمنين إلى هذا الفتح فإن السيد الإمام يرى أنّ هذا الفتح مختصٌّ بصاحب الولاية المطلقة النبي الأكرم ﷺ إلا أنّ غيره من الرسل أيضاً له حظّ بالتبع لا بالأصالة. (الخميني، 1410: 216). فهو من المقامات الخاصة بالخاتم ﷺ و إذا حصل ذلك لشخص فهو بالتبع و بسبب شفاعة النبي الأكرم ﷺ (الخميني، 1422: 370).

معنى ذنب النبي ﷺ و غفر انه عند الكاشاني و السيد الإمام الخميني

ورد في القرآن عن نبي الله آدم ﴿ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ﴾ و ورد في داود: ﴿ وَظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَ أَنَابَ فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ ﴾ و ورد في نبي الله سليمان: ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ ﴾ إلى قوله: ﴿ ثُمَّ أَنَابَ ﴾ و في نبي الله يونس: ﴿ وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا ﴾ إلى قوله: ﴿ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ ﴾ لكن عندما يذكر نبي الله محمد يقول: ﴿ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ ولم يُذكر ذلك الذنب. وقال: ﴿ وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ ﴾ ولم يُذكر الوزر. و في هذا فضل لنبينا عليه الصلاة والسلام. ففي الأنبياء الذنب يذكر ثم يغفر، أما نبينا فالذنب يذكر ولا يبيّن، بل يُستر، وهذا من فضائله وتعظيمه صلوات الله وسلامه عليه.

ما معنى الذنب و ما هي حقيقته و روح معناه؟!

روح معنى الذنب هو المحدودية و التقيّد ، و إزالة هذه القيود هي الغفارية و السّتر، يذكر غلام علي الشيرازي تلميذ محمد رضا القمشه اي في تعليقته على شرح الفصوص: "الذنب كل ما يبعِّد العبد عن المعبود كما أن الطاعة كل ما يقرِّبه إليه" (شرح الفصوص تحقيق آشتياني، ص72)

إذا لاحظنا النبي ﷺ بوجوده العُنصري في عالم الخلق سوف نجد أنّ الوجه الظاهر من خلافته و نبوّته مقيّد بنشأة عالم الخلق و أحكامها و إن كان في باطنه مستغرق في الولاية و القُرب الذاتي، فذاك هو مقامه و حقيقته ﷺ-كما مرّ-، و ليس حالاً من حالاته كي يتركه ثم يعود إليه بالتوبة و الاستغفار، إذن هو خليفة في الظهور فهو الظاهر في كل العوالم بأحكامها و قيودها فيظهَر مُقيّداً بقيودها بناء على اتحاد الظاهِر و المَظهَر لكنه في حقيقته فوق التقيد، و قد أشارت رواية «إنه ليغان على قلبي فأستغفر الله ... » أو أنه ﷺ يستغفر الله بعد كل مجلس مع الناس 25 مرة، الغين هو حجاب رقيق يزول بنور التجلي (الكاشاني، 1426: 61)على خلاف الرّين الذي هو حجاب كثيف بين القلب و الإيمان بالحق سبحانه (الكاشاني، 1426: 61)، و هذا الحجاب الرقيق -بناء على المقدّمات السابقة- هو تنزّل الحقيقة النبوية و إخبار الناس عن عالم الغيب و الأخذ بأيديهم للكمال و الهداية بمقدار ما تسعه عقولهم و أرواحهم و قابلياتهم، فالقيد و الحجاب من القابل و بالاستغفار يزول

ذلك الحجاب، هذه مرتبة من مراتب الذنب و الاستغفار ترتبط بدور النبي ﷺ و خلافته على العوالم، سواء من حيث التنزل و قبول الخلافة منذ أن ظهرت الخلافة المحمدية في آدم عليه السلام و هو أحد مراتب الذنب المتقدّم ، فالنبي الخاتم ﷺ خليفة في ظهور كل الأنبياء و هو أحد معاني «آدم و من دونه تحت لوائي»، أو من حيث علاقته بالخلق و الأخذ بأيدي الناس و هدايتهم في قوس الصعود و هذا أحد مراتب الذنب المتأخّر، سواء كانت الهداية بشكل مباشر في زمن وجوده العنصري أو في أزمنة غيره من الأنبياء عليهم السلام فهو الخليفة على الإطلاق، و هو الظاهر و الأنبياء مظاهر له ﷺ كما هو حال الأمم و العوالم، لذلك هو الشاهد عليهم.

أشار السُلّمي إلى هذه المرتبة من الذنب في كتابه حقائق التفسير حيث قال: " «ما تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ»: ما كان من ذنب أبيك إذ كنت في صلبه حين باشر الخطيئة. «وَ ما تَأَخَّرَ» من ذنوب أمّتك إذ كنت قائدهم و دليلهم. و الخلق كلهم موقوفون ليس لهم وصول الى الله تعالى إلا معه." (السُلّمي، 1369: 188)

و قد ذكرها التستري في تفسيره (التستري، 1423: 147) و بهذا يتبين أيضاً أنّ خطيئة آدم هي استجابته لأمر الله و إقباله على الكثرة بتعلّم الأسماء و ظهور الكثرة الأسمائية في آدم بواسطة المُظِهر لها أي النبي الخاتم ﷺ و بها ظهرت كل الكثرات و التنزلات، كما أشار غلام علي إلى هذا المعنى من معاني الذنب في تعليقته على الفصوص -حسب ما

حققه السيد جلال الدين الآشتياني على شرح الفصوص-: "الذنب المتقدم في الحقيقة هو المبعِّدات التي تحصل في السلسلة النزولية اللازمة للتنزلات الوجودية و تشأن الحقيقة الإلهية بشئونه و صور كمالاته، و الذنب المتأخر هو أيضاً النقصانات و المبعدات لكن في السلسلة الصعودية. و الإنسان الكامل الختمي يجبر تلك النقصانات و يمحوها و يسترها بالوصول إلى عين الحقيقة و هذا معنى المغفرة" (القيصري، **1375: 72**).

إنّ لكل فتح ذنب و غفارية تُلازمه. أما في ما يرتبط بالفتح القريب، فإنّ من نتائجه تبشير المؤمنين أنهم يشاركون النبي ﷺ في التجليات الأسمائية و تُفتَح لهم المعارف القلبية، و هذا الفتح يتم بواسطة النبي ﷺ فتُغفر و تُستَر نفوس المؤمنين التي هي تجليات نفس النبي ﷺ و يصل المؤمنون السائرون في مقامات النبي ﷺ إلى مقام القلب، و بناء على ما مر من أنّ العوالم و الأنبياء و الأُمم كلها تجليات النبي ﷺ، ذلك التجلي الأعظم للأحدية في مراتب النزول ، و به تعود أيضا كما بدأت إلى مرتبة الأحدية، فذنب النبي ﷺ في الفتح القريب هي تلك التنزلات في مراتب النفس في قوس النزول، هذا هو الذنب المتقدّم، أما الذنب المتأخّر فهو الأخذ بأيدي الناس كي يتقربوا من الله سبحانه في قوس الصعود، و غفران ذنبه هو إزالة تلك المراتب بعودتها و ترقّيها إلى مقام القلب.

أما في ما يرتبط بالفتح المبين فقد ذكرنا أنّ النبي ﷺ هو الخليفة في الظهور، به ظهر الخلق و به يعودون، فإنّ خلاص المؤمنين من محدودية النفس و منازلها يتم به ﷺ و أن

نفوسهم هي مظاهر نفسه ﷺ، و إن كانت حقيقته فوق القيود، لكنه في مظاهره لا يمكنه أن يؤدي حق الأزلية بكمالها لمحدودية المظاهر، و هذا هو ذنبه المتقدم أي تلك الحدود و المنازل النفسية، أما ذنبه المتأخر فهي القلب و مراتبه، و الغفارية هي زوال هذين الذنبين.

هذا ما أشار إليه صاحب كتاب عرائس البيان في حقائق القرآن بقوله في ذيل الآية المباركة: "﴿ إِنَّا فَتَحْنا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً (1) لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ ما تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَ ما تَأَخَّرَ﴾: نبّهنا الله في ذلك من سرّ عجيب، و هو أن أبواب كشف القِدم مسدودة على أهل الحدثان، و لم يظهر لأحد عين ذات الأزل، ففتح الله أبوابه لعين محمد صلى الله عليه و سلم حتى رآه كفاحا، فتح سمعه فأسمعه كلامه شفاها، و فتح باب قلبه و روحه و سرّه، فعرف نفسه لها، حتى وجدت أبواب خزائن علومه الغيبية مفتوحة، و فتح الله جميع أبواب وجود حبيبه صلى الله عليه و سلم حتى الشعرة على بدنه و جعلها عيونا مفتوحة بمفاتيح توحيده و أنوار حقيقته حتى رآه بجميع عيون وجوده، و ذلك الفتح ظاهر من وجوده حتى لا يراه أحد إلا و يرى نور الصمدية ينتشر من بشريته، لكن كان محجوبا من عيون الأغيار بقوله: يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَ هُمْ لا يُبْصِرُونَ، و ذلك الفتح سبب غفران ذنبه الأول و ذنبه الآخر، الذنب الأول سقوطه من زند الفعل على نور الصفة؛ إذ أتى في أوّل الأول بوجود الحدث إلى ساحة القدم، و مع ما أتى به لم يأت بحقوق الأزلية عليه بكمالها، فإذا قصّر في واجب حق الربوبية بكماله عليه صار ذلك ذنبه الأول، و ذنبه الآخر وقوفه بنعت الخطاب على مدارج العبودية بعد أن غاص في بحر الربوبية، فإن من شرائط وجدانها الخروج من المرسومات، فذلك

الفتح سبب غفران الذنبين، و ليبلغه إلى محض الاتصاف و الاتحاد حتى تسير الربوبية في ركاب حيزوم القدم في ميادين الأزل إلى الأبد بنعت التوحيد و التجريد و التفريد، و ذلك تمام نعمته التي عليه أخبرنا الحق عنها بقوله: وَ يُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ، ثم بيّن أنه يهديه إلى طريق مشيئة الأزل المستقيمة بالإرادة و الوحدانية" (روزبهان بقلي، ج3، ص313)

أما في ما يرتبط بالفتح المطلق فقد ذكرنا أنّ فيه يغرق السالك و يفنى و تستتر ذاته عنه في بحر قهارية التجلي الأحدي. هذه المرتبة من مراتب الذنب و الاستغفار ترتبط بعلاقة النبي ﷺ بالحق سبحانه و تعالى، فالنبي ﷺ مخلوق و مهما عبد الله فإنه كما عبّر «ما عبدناك حق عبادتك» وكيف للمخلوق أن يعبد المطلق اللامتناهي و هو لا طريق له إلى معرفته حق المعرفة «و ما عرفناك حق معرفتك»، فذنب النبي ﷺ هو وجوده المحدود و مخلوقيته (وجودك ذنبٌ لا يقاس به ذنب) و استغفار النبي ﷺ يزيل هذه المحدودية ويؤكّد على ولايته الذاتية و هي ولاية لا متناهية و استغفار النبي ﷺ و عبوديته للحق سبحانه تجعله يعرج عروجاً لا متناهيا في مقام (أو أدنى) و هذا ما أشارت إليه الآية القرآنية ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ﴾ أي عبد الهوية اللامتناهية و هو من مختصاته ﷺ كما مرّ، فمن مراتب ذنبه المتقدّم هو كونه صاحب الولاية الذاتية في قوس النزول ، و من مراتب الذنب المتأخر هو كونه ﷺ صاحب الفناء الذاتي اللامتناهي في قوس الصعود.

هذه آخر مراتب غفران الذنب و أكبرها و هو الذنب الذاتي (وجودك ذنبٌ لا يُقاس به ذنب) وقُصِد به التفات وتوجه السالك إلى وجهه الحقيّ وغفلته عن وجهه الخلقي. إذن مع الفتح المطلق تنكشف التجليات الذاتية الأحدية و يُغفر الذنب الذاتي المطلق. (الخميني، 1422، 370).

النتيجة

تبيّن أنّ الفتح هو كل ما يُفتح على العبد من الله تعالى بعد ما كان مُغلقاً عليه من النِعم الظاهرة و الباطنة كالأرزاق و العبادة و العلوم و المعارف و المكاشفات و غير ذلك.

و أنّ كل فتح من الفتوح الثلاثة (القريب و المبين و المطلق) يلازمه غفران ذنبيَن أحدهما متقدّم و الآخر متأخّر، المقصود من الذنب هو المحدودية و التقيّد ، و إزالة هذه القيود هي الغفارية و السّتر.

بما أن النبي ﷺ هو الخليفة في الظهور و واسطة الفيض فإن ذنب النبي ﷺ المتقدّم في الفتح القريب هي تلك التنزلات المحمدية في مراتب المظاهر خصوصا النفوس البشرية من الذُريّة في قوس النزول، أما الذنب المتأخّر فهو الأخذ بأيدي الناس كي يتقرّبوا من الله سبحانه في قوس الصعود، و غفران ذنبه هو إزالة تلك المراتب بعودتها و ترقّيها إلى مقام القلب.

إلا أن مقام القلب يعدّ قيدا و محدودية أيضا من هنا كان لابد من فتح آخر هو الفتح المبين و بما أنّ النبي ﷺ هو الخليفة في الظهور، به ظهر الخلق و به يعودون، فإنّه كما أنّ خلاص المؤمنين من محدودية النفس و منازلها يتم به ﷺ فإن نفوسهم هي مظاهر نفسه ﷺ، و إن كانت حقيقته فوق القيود، لكنه في مظاهره لا يمكنه أن يؤدي حق الأزلية بكمالها لمحدودية المظاهر، و هذا هو ذنبه المتقدم أي تلك الحدود و المنازل النفسية، أما ذنبه المتأخر فهي القلب و مراتبه، و الغفّارية هي زوال هذين الذنبين.

أما في ما يرتبط بالفتح المطلق حيث لا يشاهد السالك إلا الحق سبحانه، فإن هذه المرتبة من مراتب الذنب و الاستغفار ترتبط بعلاقة النبي ﷺ بالحق سبحانه و تعالى، فالنبي ﷺ مخلوق -و إن كانت حقيقته لا متعيّنة و فوق التعيّن- و مهما عبد الله فإنه كما عبّر هو ﷺ: «ما عبدناك حق عبادتك» وكيف للمخلوق أن يعبد المطلق اللامتناهي و هو لا طريق له إلى معرفته حق المعرفة «و ما عرفناك حق معرفتك»، فذنب النبي ﷺ هو وجوده المحدود و مخلوقيته (وجودك ذنبٌ لا يقاس به ذنب) و استغفار النبي ﷺ يزيل حجاب هذه المحدودية، ويؤكّد على ولايته الذاتية و هي ولاية لا متناهية فذنبه ﷺ المتقدّم هنا هو كونه صاحب الولاية الذاتية في قوس النزول، كما أنّ استغفار النبي ﷺ و عبوديته للحق سبحانه تجعله يعرج عروجاً لا متناهيا في مقام (أو أدنى) و هو من مختصاته ﷺ، هذا هو الذنب المتأخر أي كونه صاحب الفناء الذاتي اللامتناهي في قوس الصعود.

المنابع

- القرآن الكريم

1. بن عربي، محيي الدين؛ الفتوحات المكية؛ بيروت: دار الصادر، بلاتا، ط1.
2. التستري، سهل بن عبدالله؛ تفسير التستري؛ بيروت: دار الكتب العلمية، 1423، ط1.
3. الجندي، مؤيد الدين؛ شرح فصوص الحكم؛ قم: بوستان كتاب، 1423، ط2.
4. الحكيم، سعاد؛ المعجم الصوفي؛ بيروت: دندرة للطباعة و النشر، بلاتا، ط1.
5. الخميني، روح الله؛ الأربعون حديثا؛ قم: مؤسسة تنظيم و نشر آثار الإمام الخميني، 1422.
6. الخميني، روح الله؛ تعليقات على شرح الفصوص و مصباح الأنس؛ قم: دفتر تبليغات اسلامي حوزه علميه قم، 1410، ط2.
7. الخميني، روح الله؛ سر الصلاة؛ قم: مؤسسة تنظيم و نشر آثار الإمام الخميني، 1378، ط6.

8. الخميني، روح الله؛ شرح دعاء السحر؛ قم: مؤسسة تنظيم و نشر آثار الإمام الخميني، 1428، ط4.

9. الخميني، روح الله؛ مصباح الهداية إلى الخلافة و الولاية؛ طهران: مؤسسة تنظيم و نشر آثار الإمام الخميني، 1376، ط3.

10. السراج، أبو نصر؛ اللمع في التصوف؛ ليدن: مطبعة بريل، 1914.

11. السلمي، محمد بن حسين؛ حقائق التفسير؛ طهران: مركز نشر دانشكاهي، 1369، ط1.

12. السلمي، محمد بن حسين؛ مجموعة آثار السلّمي؛ طهران: مركز نشر دانشكاهي، 1369، ط1.

13. الشيرازي، صدر المتألهين؛ تحقيق خواجوي، محمد؛ مفاتيح الغيب؛ طهران: مؤسسة مطالعات وتحقيقات فرهنكي، 1363، ط1.

14. القشيري، عبدالكريم؛ الرسالة القشيرية؛ قم: انتشارات بيدار، 1374، ط1.

15. القيصري، داود؛ تحقيق الآشتياني، جلال الدين؛ شرح فصوص الحكم؛ طهران: شركت انتشارات علمي فرهنكي، 1375، ط1.

16. الكاشاني، عبدالرزاق؛ اصطلاحات الصوفية؛ بيروت: دارالكتب العلمية، 1426.

17. الكاشاني، عبدالرزاق؛ تأويلات الكاشاني؛ بيروت: دارإحياء التراث العربي، 1422.

18. الكاشاني، عبدالرزاق؛ لطائف الأعلام في إشارات أهل الإلهام ؛ القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية، 1426.

19. الكاشاني، عبدالرزاق؛ مجموعة رسائل و مصنفات الكاشاني؛ طهران: ميراث مكتوب، 1380.

20. الكاشفي، حسين بن علي؛ رشحات عين الحياة؛ بيروت: دار الكتب العلمية، 2008، ط1.

21. مولوي، جلال الدين؛ المثنوي المعنوي؛ القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، 1416، ط1.

22. الميبدي، رشيد الدين؛ كشف الأسرار وعدّة الأبرار؛ طهران: انتشارات أمير كبير، 1371، ط5.